سكان سورية الساميون

من اقدمهم اللودان او الروتان

« تمهيد »

ليس من دعامة يشيَّد عليها بناء التاريخ مثل الآثار القديمة والمكتشفات المخبوءة في بطون الارض فانها كلما ظهر منها شيء للعيان كشف اسراراً كانت غامضة على من تقدم . ولهذا لا يزال التاريخ القديم قابلاً للتصحيح والتنقيح متجدّداً بتجدُّد الابحاث والاحافير فهو تابع لحالة البلاد من التنقيب او الاهمال متوقف على ارتقائها او انحطاطها

ولما كانت سورية ولاسيما المتوسطة منها هدفاً للغزوات وعرضةً للفتوحات لانها قائمة في طريق الممالك الكبرى التي كانت في وادي دجلة والفرات ووادي النيل ولأن عناصر سكانها المختلفة متفرقة الكلمة متشتتة الجامعة ذاقت من النكبات ما ذاقت واستهدفت للبلايا ما استهدفت في جميع ادوارها

واول من هاجر من خليج العجم على الراجح الى شطوط سورية الكنعانيون الذين اشتهر من سلائلهم الفينيقيون سادة البحار في تلك الايام فتفرقوا في البلاد وكلفوا بالتجارة وما زالوا يرتقون في معارج الفلاح حتى طمحت اليهم عيون الفاتحين فبدأت غزوات ملوك العراق لهذه البلاد منذ القرن السادس والعشرين قبل الميلاد طمعاً بامتلاكها

وعلى اثر ذلك كانت المهاجرات الى هذه البقعة فصارت سورية مباءةً للامم التي جلت طوارئها اليها وتوطنتها فكثرت الحروبُ الداخلية والخارجية بين شعبها وغزاتها

وممن لم يصرح المؤرخون بهم من تلك الشعوب او اشاروا اليهم من طرف خفيّ هم اللودان او الروتان اخوة الآراميين ومطمح غزو الحثيين الذين حلّوا محلهم الى ان خضد الآراميون شوكتهم متغلبين منهم لاخوتهم اللوديين فاتخذوا دمشق عاصمة لمملكتهم الآرامية وانشأوا دولة ضخمة فاستفحل الخلاف بينهم

وبين الاشوريين وكثر السبي من ابنائهم ونكبت بلادهم بالكوارث الى أن انحط شأن الاشوريين في اواخر القرن السابع قبل الميلاد فخلفهم البابليون ثم الفرس ومن بعدهم

فلنبحث الآن بعد هذا التمهيد في الشعب اللوداني السامي الذي كشفت الآثار القديمة شيئاً عن شؤونه

من هم اللودان ؟

كان اولاد نوح الجدّ الثاني للعالم بعد الطوفان ثلاثة وهم سام وحام ويافث فمن سام نشأ خمسة ذكورهم عيلام جدّ الفرس. واشور جدّ الاشوريين. وارفكشاد جدّ العبرانيين . ولود جدّ اللودان او اللوديين وآرام جدّ الآراميين . ومن سلائلهم تحدّرت الشعوب السامية المشهورة مما لا محل لتفصيله الآن . ولكننا نقصر بحثنا على سلائل لود لانها موضوع مقالتنا هذه

في سفر التكوين (١٠ : ٢٢) تصريح بهذه الانساب ولكنهُ اقتصر على تفصيل سلائل اثنين من الخمسة فقط وهما ارفكشاد لان منهُ الشعب العبراني الذي استرسلت التوراة في أنبائهِ . واخوهُ آرام لان منهُ قبائل جيرانهِ وانبائهِ قدماء السوريين

ثم جاءت نسابة العرب مثل ابن اسحق وابن حزم وغيرهما ممن نقل عنهم المؤرخون المشهورون كابن خلدون وابن الاثير وابي الفداء وصرّحوا بان لاوذ (لوداً) هو ابن آرام لا اخوهُ وما ذلك الاّ لامتزاج هذين الشعبين اي اللودي والآرامي وتداخل موطنيهما فصارا شعباً واحداً في نظر المؤرخين

ولما كان لود اكبر من آرام نشأت دولتهُ قبل هذه وعرفتها الآثار المصرية كما سترى باسم الروتان وهي تحريف اللوداني . ولما انقرض الحثيون المتغلبون على اللوديين واستظهر عليهم الآراميون في اثناء القرن الثامن قبل الميلاد اشتهر اسم آرام وتناسي اسم اللودان او الروتان

هل اللودان هم الروتان ؟

ان اسم (لود) اشتهر في اللغات الشرقية ولكن اللغة المصرية القديمة (الهيروغليفية) حرّفتهُ الى (روت) وذلك ظاهر من تبادل الحروف فان اللام

والراء متقاربتان (وكثيراً ما سمعنا الالثغ يلفظ الراء لاماً) وكذلك التبادل بين الدال والتاء فلا عجب اذا كان المصريون قد سمعوا (لوداً) (روتا) فقالوا في اللوديين الروتيين

وقال بعض العلماء المشهورين بمعرفة اللغة المصرية ان العلامة الرمزية المصرية الدالة على هذا الاسم تقرأ ايضاً (لودانو) كما تقرأ (روتانو) ويقال ان هناك لغة ثالثة هي (لوتانو) ايضاً. وكلها اسماء لقبيلة واحدة منسوبة الى (لود) بن سام بن نوح

وذهب كثير من المؤرخين الى ان عرب الشاسو او الهكسوس (الرعاة) الذين اشتهروا في مصر والحمورابيين الذين عرفوا في بابل. هم والروتان من فصيلة واحدة وربما افردنا لهذا البحث مقالة خاصة في فرصة اخرى

وقال لنورمان الفرنسي ان اسم الروتان اطلق على معظم سكان سورية. وخالفه الاب دي كارا مدعياً انه لم تكن لهؤلاء القبائل الا الزعامة وقيادة الجيوش السورية ولاسيما في عهد ابرهيم الخليل وفي اثناء وجود العبرانيين في القطر المصري كما سترى في اثناء مباحثنا. وعلى كلا الرأيين نرى ان اللوديين قبائل حربية وامم عظيمة افراداً وجماعات كما حقق مسبرو في تاريخه (شعوب المشرق) وغيره من محققي العصر وكبار مؤرخيه

هل اللوديون حثيون ؟

ظن بعض المؤرخين أن هذا الشعب هو من قصائل الحثيين وقد اوقعه في هذا الوهم أنهم خلقوهم في الملك فظن انهم من انسبائهم. وربما كان الذي خدعه في هذا الرأي ان هيئة الحثيين من حيث وجوههم الطبيعية هي اقرب الى اللوديين. فلون وجوههم ابيض ضارب الى الحمرة وكانوا يحلقون شواربهم ولحاهم وشعور رؤوسهم ويتركون في أعلاها وفرة أو ناصية او جمة فقط. وشعورهم سوداء ولباسهم قميص مستطيل يتصل الى العقب. ويظهر من صورهم في الآثار المصرية انهم حفاة دلالة على احترامهم. وفي آثار مواطنهم ترى صور احذيتهم معكفة الى ما فوق مثل أحذية القرون الوسطى وكانوا يشنفون آذانهم الى كثير من امثال هذه المشاركات التي ظنها بعضهم صلات نسب وهي ليست الا صلات جوار

فالحثيون بحسب الآثار اقرب الى اللوديين منهم الى سكان فلسطين

ما هي مملكة الهوديين ؟

نشأ هذا الشعب امارات صغيرة متباينة الاغراض مختلفة المنازع لا تجمع كلمتها جامعة ولا تؤلف شملها عصبية . وكانوا ينتسبون الى لودان المغرب أو الاسفل وهم سكان دمشق وبلاد كنعان . والى لودان المشرق او الاعلى وهم سكان سورية الشمالية وجزء من غربي ما بين النهرين.

فاختطوا لهم المدن والقرى واتخذوا الحواضر والحصون . فكانت عاصمتهم الشمالية كركميش على ضفة الفرات وهي المعروفة اليوم باسم جيرابيس . وعاصمتهم المتوسطة مدينة قادش (قدس حيث بحيرة قطينة قرب حمص اليوم) على ضفة العاصي. واتخذوا لهم عاصمة جنوبية لامارتهم مثل دمشق او بعلبك في سورية المجوفة

ولقد ضربوا الجزية على كثير من المتغلبين عليهم مثل الحثيين واشباههم . فامتدت سلطتهم وبسطوا رواق ظفرهم على البلاد الشرقية من العراق الى حدود مصر ولكن الفراعنة لم يكونوا يحترمونهم كملوك بل كامراء أو زعماء للعشاة . ولهذا لم يعقدوا معهم الصلح ولا عاملوهم معاملة الملوك في اعطائهم حقوقهم المعروفة بل ضربوا عليهم الجزية

ولكن الممالك اللودية كانت في مهد حضارتها من القبائل الباسلة في الحروب فابلت بلاء حسناً في مواقعها وجشمت الجنود المصرية مشاق كثيرة حتى استظهرت عليها وفتت في عضدها فضلاً عن انها قاومت جيوشها الحثيين في غزواتهم مقاومة عنيفة الى أن قضى عليها التخاذل بالانحدار والتقهقر فانضوت الى اخوتها القبائل الآرامية وامتزجت بها امتزاج الماء بالراح ولم يبق من اسمها الا ما سجل على صفائح الحجارة وفي بطون البرديّ مما حفظ في دور الآثار وصدور المكاتب فكان مرجعاً للبحث في تاريخ هذه القبائل المندرسة

حروبهم وآثارهم

ان اهم المواقع الحربية جرت مع اللوديين ومناوئيهم فراعنة مصر والحثيين كما سطرتها الآثار القديمة في هيكل الكرنك المصري وغيره ونقشت على الصفائح المحفوظة في دور التحف مما لم يبق اقل ريب في حروب هذه القبائل وشؤونها

وأول غزوة ذكرتها الآثار هي غزوة توطميس (تحوتمس) الاول ملك مصر من الاسرة الثامنة عشرة وذلك سنة ١٦٥٠ ق.م فانه بعد ان دوّخ الكنعانيين في

فلسطين زحف الى دمشق وانتصر على الروتيين (او الروتنو) وتوغل في سورية الشمالية الى دجلة والفرات ودخل مدنهم العظمى كنينوى وبابل واقام نصباً قرب كركيش وكان قائد جيش فرعون هذا رجل باسل اسمهُ احمس فوصف هذه الموقعة بما ملخصهُ : « ان سيدهُ الملك تحوتمس عاد الى طيبة بعد ان غزا الروتنو وهم اهل الشام الشمالية وجال بجيشهِ فيما بين النهرين حتى اعتصبت عليهِ خصومهُ فاوقع فيهم قتلاً واسراً الى ان استظهر عليهم ولم يحص عدد القتلى والاسرى . وكان ذلك القائد (مسجل هذه الموقعة) في مقدمة الفرسان واظهر شجاعة وغنم عربة وبغلتين قدمتهما للملك فأحسن اليهِ بعقد ذهبي »

وقيل انهُ غنم ايضاً خيلا فادخلها مصر ولم تكن تعرف قبلهُ فيها لانها لم تصوَّر على الآثار المكتشفة الاَّ بعد هذه الغزوات . وهكذا صار اسم الفرس عند المصريين سامياً وهو (سوس) الى غير ذلك من الانباء الاخرى التي فصلت. وكان ملك ثوطميس الاول نحو سنة ١٦٥٠ ق م ومدة حكمهِ نحو احدى وعشرين سنة

واما الغزوة الثانية التي جرت فهي مع ثوطميس الثالث الذي ملك نحو سنة ١٦٢٥ ق.م . فعصى عليهِ الروتنو وامتنعوا عن دفع الجزية التي ضربها عليهم ثوطميس الاول وامتدت الثورة الى ما يجاورهم فرقت آسية من طاعة المصريين ولم يبقَ تحت حكم فرعون مصر الاَّ غزَّة وضواحيها في فلسطين فحمل عليهم بجحفل جرَّار الى غزَّة . وكان قائد العساكر العامّ لملوك سورية وفلسطين ملكُ قدَس الروتاني فانتشبت الحرب بينهم في ظاهر مدينة مجدو (المجون) فشتت فرعون شمل اعدائهِ وجاس خلال فلسطين الى دمشق ومنها الى سورية الشمالية . فتمَّ لهُ الانتصار على تلك القبائل واخضع مائة وتسع عشرة مدينة من مدن بلادنا السورية (الروتنو) منها بيروت ويافا وصور ومجدو وعكا وارواد ودمشق وحماه وقادش وكركيش (١)

ونحو سنة ١٦٠١ ق.م لعاد الكرة على سورية وارهق الروتنو في عبر نهر الفرات وشيد حصوناً وترك صفائح دوَّن عليها ظافرهُ هذا مما عرف هذه الموقعة وفصَّل ما جرى فيها

(١) ونقش خبر غزوته هذه على جدران هيكل الكرنك في مصر .ووجد في متحف برلاق حجر عليه صورة هذا الملك واتوال لامون فيه

وسنة ١٥٩٦ ق.م وهي السنة التاسعة والعشرون لملكه زحف على سورية ثالثة ونازل ملك قادش وحلفاءه فولاّه الله كتائبهم وعاج بشواطىء البحر الروحي فدوخ اراتو (ارواد) وتقدم الى حلبون (حلب) ودخل لبنان في مقاطعة (زاهي) ونملها من سورية المجوفة أو من ضواحيها

وبعد سنة حاصر قادش فافتتحها عنوة بعد ان قوض معاقلها وخشي بأسه ملوك الرومان في ما بين النهرين فقدموا له الخضوع والطاعة خوف فتكه واتقاء بطشه

وما زال الروتيون ارباب سطوة قابضين على زمام الاحكام في انحاء سورية الى آخر ايام الاسرة الثامنة عشرة من ملوك مصر فضعف شأنها ونبذت سورية وفلسطين طاعتها . وصارت حروب السوريين داخلية فقام الحثيون على الروتيين يشاطرونهم السلطة في شمالي سورية حتى اجلوهم عنها وامتدت سطوتهم شيئاً فشيئاً الى ان صارت مملكتهم واحدة ممتدة من شاطىء الفرات الى جبال طورس فالبحر المتوسط . وجنوباً الى دمشق وما وراءها . وبقيت عاصمتهم قادش التي خلفتها كركميش (جرابيس) وحتي (بوغاز كوي) في اسية الصغرى . فهكذا نشأ الحثيون خلفاء الموديون

واما الروتيون فانهم اندغموا باخوتهم الآراميين حتى تناسي اسمهم وغلب عليهم اسم هؤلاء وعرفت بلاد الحثيين فقط باسم بلاد (الروتان) ومنها سورية المجوفة او الوسطى حيث كثر الروتيون بعد غلبة الحثيين اياهم . فعمّ اسم آرام جميع تلك البقاع بعد ان استظهروا على الحثيين مقتصين منهم لاخوتهم الروتيين ولاسيما بعد انقراض الحثيين في القرن الثامن قبل الميلاد وانتصار الاراميين عليهم

وبقي اسم آرام شائعاً في جميع البقاع السورية شمالها ومتوسطها وجنوبها الى فتح اليونانيين في القرن الرابع قبل الميلاد فاندثر بظهور النصرانية واول من بدل تسمية الآراميين بالسوريين اليونانيون واول من ذكره هيرودوتوس المؤرخ الشهير وهو تحريف اشورية نسبة الى اشور على الراجح

وكان ملوك مصر يقصدون غابات لبنان للصيد والغزو وبينهم جواسيس يبثون روح حب الفراعنة بين سكان البلاد ليستميلوهم اليهم فدخلوا المدن الساحلية وتطرقوا الى الداخلية ونقلوا الاخشاب وبعض حاصلات البلاد وحملوا الى السوريين هدايا وتحفاً وهكذا فعل الملوك الشماليون

ومن الآثار الدالة على هذا يردي عليه كتابة قرىء فيها اسم مدينة (كبي) أو (جبلي) وهي جبيل على شاطىء البحر الروي من مدن لبنان . وفي ضواحيها كتب اسم المدينة الرئيسية التي وصفها الرحالة سنوحيث ولعلها (بيروت) ونحوها من كبار المدن الساحلية وذلك يدل على عمران لبنان الساحلي في ذلك العهد .

ومن أثر آخر قديم ظهر ان المصريين عرفوا مدينة جبيل (بيبلوس) قبل سنوحيث ببضعة قرون عند ما كان كثير من شرفائهم يقصدونها وينصبون خيامهم على مرتفعاتها وينقلون منها خشب الارز لعمل قواربهم ومراكبهم وتزيين هياكلهم . وكانت رحلات سنوحيث المذكور من نحو الفي سنة قبل الميلاد على امنمحيث الاول وفيها ذكر شرفاء مصريين جاؤوا هذه البلاد لمقاصد متباينة منها الصيد وترويح النفس في رباها والتجارة باخشابها واشياء هذا

وفي مسلة قديمة من زمن أمنمحيث الثالث انباء صلات المصريين مع السوريين ولاسيما اللوديين

وفي المتحف البريطاني اثر من طيبة المصرية يرجح انهُ نقش في عهد الدولة الثامنة عشرة يمثل رجالاً من اللوتيين يقدمون هدايا لفرعون أو احد خاصته وبعضهم ساجدٌ بوجههِ الى الارض والآخر رافعٌ يديهِ الى السماء وبينهم صبيٌّ وهم يلقون تقادمهم امام الملك . وكلٌّ منهم ما عدا الصبيّ مرتدٍ بثوب طويل ابيض معلم وملامح وجوههم وعيونهم اشبه بالعرب ولحاهم مسترسلة كأنهم اخوة يوسف يقدمون لهُ هداياهم

ذلك الى كثير من امثال هذه الادلة الناطقة بوجود هذه القبائل والمدونة وقائعها والواصفة هيآتها

بقايا اسماء مدنهم واماكنهم

لاخفاء ان ولاية ازمير اليوم في الاناضول تسمى (ليدية) حتى قال يوسيفوس اليهودي المؤرخ الشهير انها منسوبة الى لود بن سام بن نوح كما في سفر التكوين الاصحاح العاشر وخالفهُ هيرودوتوس المؤرخ اليوناني مصرّحاً انها نسبت الى ليدوس احد ملوكها المشهورين . والقولان ممكنان على ان الثاني ارجح اليوم

واما (الروتان) وهم اليوم من طائفة الروم الكاثوليك في جهات النمسة والمجر وفي الولايات المتحدة الاميركية فقيل انهم منسوبون الى روتانية وهو اسم روسيا

القديم. ولا نعلم اشتقاق هذا الاسم ولا علاقته مع الروتان الموصوفين في مقالتنا هذه

ولكنّ البقاع التي نزلتها القبائل الروتانية او اللودانية شقائق القبائل الآرامية ابقت لنا من الاسماء المنسوبة اليها او الموافقة لاسمها كثيراً تتخذه دعامة لغوية لتتمة بحثنا عنها بعد ان دهمناها بالآثار القديمة

ففي (سورية المجوّفة) او (وادي سورية) حيث تجري انهار العاصي والليطاني ويحفوفه وبردى بقايا اسماء مدن روتانية صرفة مثل (بلودان) فوق الزبداني فانها اقرب كلمة لهم ونرجح انها من حواضرهم وهي مختصر (بيت لودان). ومثلها باللغة المصرية (بريتان) في بلاد بعلبك والبقاعين فهي مختصر (بيت روتان)

ولقد مرّ معنا تبادل (لود) بكلمة (روت) و(لوت) و(ليت) او (ليط). فيكون اسم نهر الليطاني في سهل بعلبك والبقاعين تحريف كلمة (لودانى) او (روتاني) بالابدال. ولقد صرّح بعض مؤرخي العرب بتسميته نهر (ليطه) أو (لنطة) مثل شمس الدين الدمشقي وابي الفداء الحموي وشهاب الدين العمري في جغرافياتهم وسبقهم الى هذا الاسم الشريف الادريسي في جغرافيته اما قول بعضهم انهُ تحريف ليونتس Leontés اي نهر الاسد فليس بثبت كما اشار الى ذلك الاب لامنس اليسوعي في كتابه (تسريح الابصار في ما في لبنان من الآثار)

ولعلّ قرية ينطا في ضواحي دمشق تحريف (لنطا) وكذلك اسم نهر (بردى) لعلهُ من (بيت روتا) ونهر (البردوني) من (بيت روتاني). وفي بعلبك قرية اسمها (حوش بردى) على مقربة من ينبوع الليطاني تساعد على صحة هذا الرأي. وجميع هذه الاماكن في سورية المجوفة حيث نزلت تلك القبائل

واذا اردنا التوسع في الاسماء والتبسط في اشتقاقها نجد ان كلمة (بيروت) تقرب من (بيت روت) و(برتي) في ضواحي جزّين (لبنان) من (بيت روتي). وكذلك قرية (بُوْدَيه) في بلاد بعلبك و(عين برضيه) يمكن تحليل اسميهما على هذا النمط ومثلها (بَأُوْده) و(بلُوْدَا) و(بلاط) (والريتانية) في لبنان

خلاصة هذا البحث

ثبت من هذه الابحاث ان اللوديين او الروتيين (بجميع لغات الكلمة) هم من سلائل لود بن سام بن نوح وانهم انشأوا مملكة عظيمة في شمالي سورية ومتوسطها

وجنوبيها واشتهروا ببسالتهم قبل اخوتهم الآراميين وان سكوت المؤرخين عن تفصيل حوادثهم لا ينقض وجودهم لان آثار مصر والمتاحف الكثيرة تؤيد ما قدمناهُ من اخبارهم معتمدين على اصدق الموارد واصح المصادر . وكذلك التحاليل اللغوية في اسماء مدنهم ومنازلهم براهين دامغة تدعم آراءنا وتثبت اقوالنا كما مرّ

فيكون اذن اقدم الامم السامية التي انشأت امارات كانت دولةً ضخمة لو تسنى لها الاتفاق التام هي قبائل اللوديين او الروتيين ولقد تديّروا سورية المجوفة او المتوسطة او وادي سورية زمناً طويلاً وتركوا فيها آثار عاداتهم وهياكلهم وحصونهم ولغتهم ناطقةً بعظمتهم ويكفي ان تكون مدينة بعلبك عاصمة الوثنية في ربوعهم

ولما دالت دولتهم انضموا الى اخوانهم الآراميين وامتزجوا بهم فتنوسي امرهم ولم يبق من آثار حضارتهم وانباء بسالتهم الا ما نقش على الصخور والتماثيل ورُقم على صفائح البرديّ

وخلاصة الخلاصة ان التاريخ القديم الغامض ليس لهُ من مرجع يعوّل عليهِ في اثباتهِ الا الآثار القديمة والعاديات المدفونة التي حفظتها لنا الايام ودوّنتها الاقلام واظهرتها من مخابئها محبةُ البحث والاستطلاع والاستقراء

وكذلك تحليل الاسماء اللغوية ومعارضتها باشباهها ومطابقتها للعبادات والعادات والشؤون . ففي مثل هذه المماوس التحقيقية يجب الخوض . وعلى اشباه تلك الدعائم المنيعة تشيّد الآراء . والى هاتيك المصادر الصحيحة توجّه الافكار . ومن هذه الموارد الصافية تستقي التواريخ . وحسبُ الباحث المحقق والمؤرخ المدقق والاثريّ البحّاثة واللغوي الفهّامة ان يكتشف ما يتوفق اليهِ من الغوامض ويكشف النقاب عن وجوه المغالط . وينزّه الافكار والاقلام عن المزالقِ والمزالق . باحثاً في فلسفة التاريخ الذي هو اليوم مرجع التنقيب وعماد التصحيح فيصوغ لنا تاريخاً كاملاً ويوصل حلقات سلسلتهِ المتقطعة فتنجلي الحقائق بمظاهر جمالها ومحاسن كمالها وتذوب الترّهات وتزول المغالط بضياء الذكاء والآراء وتسديد

اسكندر عيسى المعلوف